عبد الرحمن منيف :
الكتابة الروائية كسيرة فكرية

فيصل دراج

وضع نجيب محفوظ في ثلاثيّته الشهيرة أشياء من سيرته الذاتية، محدّثاً عن نفسه طفلاً وصبيّاً وطالباً في كلية الفلسفة، متماهياً بـ «كمال»، القلق المتوتّر المسكون باللاّيقين والمغترب بين آخرين، يتوزّعون على الاغتراب والامتثال المطمئن إلى العادات المتوارثة. وإذا كان في صورة المغترب اللامقيّد ما يفصح عن مجتمع متعدد بعيد عن الانغلاق، فإن في سيرة التلميذ المغترب ما يردّ إلى ثورة ١٩١٩، التي حافظ محفوظ على انتسابه إليها بلا مساومة. وهذا الانتساب جعل الروائي العجوز يرى إلى «ثورته» بحنين كبير في آخر رواياته «يوم قتل الزعيم»، بعد أن جعل منها بعداً وطنياً – أخلاقياً ثابتاً في روايات سابقة : «ميرامار، ثرثرة فوق النيل، الشحاذ»..

التبست سيرة محفوظ الفكرية بثورة عايشها صبياً واندرج في تداعياتها شاباً، وتأمل انطفاءها كهلاً وشيخاً. بقيت «ثورة سعد» هي المرجع الأصلي، الذي تعود الرواية إليه، وتشتق منه سيرة ذاتية فكرية، صريحة أو مضمرة. على خلاف محفوظ، وفي زمن جيل روائي لاحق، ستأتي السيرة الذاتية، الصريحة أو المضمرة، من علاقة المثقف المغترب بسلطة قاهرة، تنهى عن المبادرة والاختيار، وترى في السجن أداة تهذيب وتصويب. وعن هذا المصير، الذي حوّم فوقه القمع السلطوي، كتب صنع الله إبراهيم في «تلك الرائحة» و«نجمة أغسطس»، وجمال الغيطاني في «الزيني بركات» وغالب هلسا في «الضحك» و«الخماسين»، حيث الفرد منقسم والرغبة محاصرة، والتحققّ الذاتي مؤجّل.

تشكّل السلطة السياسية المرجع الأكثر سيطرة في الرواية العربية، كما لو كانت شراً ووباء ولعنة، تقمع الفرد، وتعتقل المجتمع، وتدمر القيم، وتحتفل بصمت القبور. وعن هذه السلطة وفي مواجهتها، تحدثت روايات غائب طعمة فرمان والطاهر وطار ومحمود الورداني وهاني الراهب والياس خوري ومؤنس الرزاز وغيرهم الكثير.. وبسبب التعارض بين ما تتطلّع إليه السلطة وما

فيصل درّاج، كاتب وناقد فلسطيني يقيم في دمشق.

يرى إليه الروائي – المثقف ترجمت الروايات العربية، وبأشكال لا متكافئة، سيراً فكرية ذاتية مقنّعة، كأن يندد الطاهر وطار بعسف أحادية الرأي القاتلة في «اللاز»، وأن يرثي فؤاد التكرلي زمن القيم الجميلة في «الرجع البعيد»، وأن يشكو محمود الورداني أوجاعه إلى «أحمد عرابي» في «الروض العاطر»... اختلطت سيرة السلطة بسيرة الروائي المغترب، الذي تختلس منه السلطة أشياء كثيرة، تاركة له «رطوبة المتخيّل» أو دفئه القليل.

لا تختلف رواية عبدالرحمن منيف (١٩٣٣-٢٠٠٤) عن غيرها، فالسلطة السياسية ثابت من ثوابتها، ونقد السلطة ثابت قبل غيره، واقتفاء آثار الزمن السلطوي قوام مشروعه الروائي كله. مع ذلك، فإن فرقاً محدداً يميزّ منيف من غيره : انتسب في شبابه إلى تجربة سياسية وعدت بأزمنة التحرر الإنساني المختلفة، وانتهت إلى صناعة الإذعان المجتمعي، بشكل غير مسبوق.

١- منيف الكتابة والتطهرّ من ماضٍ مخادع :

في نقده لعالم عربي يتداعى، تحدث عبدالرحمن منيف، ذات مرة، عن : «جو السياسة الأمية والمتقلبة التي تغمر الساحة العربية من أقصاها إلى أقصاها»، وعن «سيطرة نمط من السياسيين الذين يتصفون بالتشاطر والقسوة الانتهازية، وصولاً إلى الخسة في آن واحد». تتصف لغة الروائي بغضب لا ينقصه القرف، وبتشاؤم لا اقتصاد فيه، لأن التشاطر السلطوي المتوّج بالخسة يغمر العالم العربي كله. يحيل الكلام الغاضب على عالم ارتاح إلى نعمة اليأس، ويتضمن بعداً ذاتياً خالصاً، فقد عرف منيف عن قرب النمط السياسي الذي أصابه، لاحقاً، بالقرف. فما كان، في زمن، يحجب التشاطر ويصرّح بـ«أهداف سامية» أسقط الأهداف، في زمن لاحق، واستبقى التشاطر.

ينتمي منيف إلى جيل من المثقفين العرب هزّه «سقوط فلسطين»، فبحث عن بديل فكري – سياسي يردّ على الهزيمة ويستعيد فلسطين عربيةً خالصة. وكان البديل الموعود هو «العروبة المنظّمة»، التي يبعث جُنْدُها سلطةً قومية، وتستنبت قواها القومية من السلطات المتعددة وحدةً عربية. انتسب عبدالرحمن، مثل كثيرين غيره، إلى البديل الموعود وناضل في صفوفه، وانتقل مكرهاً من بغداد إلى القاهرة، وأعطى، فرحاً، جزءاً من شبابه وهو يتطلع إلى «عاصمة الأمويين»، ويلتفت إلى «عاصمة العباسيين». وسواء كان في أطياف العاصمتين ما يبعث أحلاماً عريضة، أو يوقظ أوهاماً لها ملمس الأحلام، فقد رأى منيف، الذي عاش حياته كلها صادقاً، إلى مستقبل يحرّر العرب من عادة الهزيمة. اعتنق «الشباب القومي»، في ذلك الزمن، جواباً لـ«ساطع الحصري» بدا مبهراً. فحين سئل «الفيلسوف القومي» عن سبب هزيمة الجيوش العربية في حرب ١٩٤٨، وهي سبعة، أجاب : «هُزمت لأنها سبعة». كان في الجواب ما يقترح النصر، وكان النصر في إذابة الجيوش في جيش مفرد، وكان المفرد العربي قوام البديل الوعيد، الذي ارتبط به عبدالرحمن مدة ليست قصيرة.

بدأ منيف مثقفاً قومياً، جمع بين العقيدة والتحزب، وجمع أكثر بين التحزّب وحس المبادرة.

وهو ما جعله يعيش التحزّب من الداخل، ويتأمل العلائق بين المبادئ والرجال، ويختبر «ساسة المستقبل»، الذين سيعتقلون المبادئ، ويحرّرون التشاطر. وعن الاختبار المر الطويل، صدر حكم عارف لا اختراع فيه ولا تجريد، وجاءت تلك النبرة الغاضبة، كما لو كان الرجل، الذي عاين المأدبة وعافتها نفسه، يدفع عن نفسه تهمة «التشاطر»، ويدافع عمّا آمن به وعبث به «المتشاطرون». تنطوي النبرة على نقد، ونقد ذاتي، وتبرّؤ وتطهير، وتعلن عن انزياح نهائي من المأدبة الملوثة إلى أرض مغايرة. انزاح منيف من حيزّ «السياسي المحترف» إلى فضاء الكاتب الناقد، الذي يدافع كتابةً عمّا تطلع إليه، ويكتب عن الذين عطّلوا أحلامه الأولى. كان، في الانزياح المأساوي، يستبقي الجوهري ويندّد بـ«القسوة» الرخيصة، وينتقل من عقيدة جامدة محدودة العناصر، إلى منظور فكري طليق يتضمن القومي والتنويري والماركسي.. والواضح في هذا كله هو خيار الكتابة، التي تتحزّب بعيداً عن الموائد، وتعيد للتحزب معناه النبيل. لهذا كتب منيف الرواية والمقالة والسيرة والدراسة التاريخية، وعن الرسم أكثر من دراسة وكتاب. كان يكتب حراً ويحاور، بحرية أكبر، قارئاً محتملاً، يبني «الفكرة القومية» على مفهوم «المواطنة»، ويشتق السياسة من الحوار الجماعي، لا من إرادة فردية «أمية ومتقلّبة».

وضع استبقاء الجوهري، كما التنديد بالانتهازية القاسية، في رواية منيف سيرة فكرية مقنّعة، تتحدّث عن الغايات المخذولة، وعن أسباب خذلانها المتوالدة، فمن عرفهم الروائي في فترة التشاطر المقنّع، استمروا، لاحقاً، لعقود طويلة. ومع أن رواية «شرق المتوسط»، التي جاوزت اثنتي عشرة طبعة، تُقرأ كـ«رواية سياسية»، تندّد بقمع سلطوي غير مسبوق، فإن فيها احتجاجاً على «مآل قومي» وعد، ذات مرة، بالحرية. صدّق منيف الشاب، المتنقّل بين بغداد والقاهرة ودمشق، شعارات انتمى إليها، وكفر بـ«أصحابها» حين احتكروا السلطة وانتهوا إلى الخراب. ولهذا لا ترصد رواية منيف «السلطة الواعدة»، في وجوهها المختلفة، إلا لترصد فيها غايات كبرى انتظرها الروائي ولم تأتِ، فرثاها كتابة وسجّل في الرثاء وقائع ماضٍ ذاتي مغدور.

كان الخطاب القومي المبكّر قد جعل من «الوحدة العربية» هدفاً مقدساً، و«أرجأت» السلطة المتحققة الهدف المقدس واحتفت بالسجون. لم تعد السلطة، التي تغدو «نظرياً» قومية حين تحتلها «العروبة المنظمة»، وسيلة إلى غاية تتجاوزها، بل تحوّلت إلى وسيلة وغاية معاً. أنجبت الوسيلة – الغاية أهدافها المحايثة لها، حيث السلطة هي الثروة، والجهاز السلطوي هو الذي ينتج ديمومة السلطة ويعيد فيها إنتاج الثروة المتراكمة. ولأن السلطة – الثروة تصور «عثماني» قديم منقطع عن الزمن الذي أنتج «القوميات الحديثة»، كان على السلطة – الثروة أن تستأنف الممارسات العثمانية، وأن تجعل «السجن» مرتكزاً سلطوياً جوهرياً. بهذا المعنى، فإن السجن، وهو موضوع عبدالرحمن في «شرق المتوسط» وفي «الهنا والآن.. أو شرق المتوسط مرة أخرى»، يحمل دلالتين متكاملتين: فهو إلغاء لـ«الحداثة القومية» التي تستبدل بـ«الرعية العثمانية» شعباً عربياً يتطلع إلى الحرية، وهو تعبير عن «اللاشرعية» لأن السلطة الشرعية، التي تقبل بالاختيار الشرعي وتعرض عن الاحتكار القهري، لا تحتاج إلى السجون.

استنكر منيف في «سلطة شرق المتوسط» انزياحاً يدمّر الأهداف القومية وشروط الحداثة الاجتماعية. وبسبب هاتين الممارستين، اللتين أجهزتا على مشروع «العروبة المنظمة» الذي تلا سقوط فلسطين، جاء الغضب الشديد الخانق في رواية عبدالرحمن، الذي أملى عليه أن يعيد كتابة «شرق المتوسط»، بعد أكثر من عقد على ظهورها، دون أن يكون في الإعادة كيف جديدً، كما لو كان يصفّي حساباً يتأبّى على التصفية. استنكرت «الهنا والآن» ما استنكرته «شرق المتوسط»، واستنكرت الروايتان نظاماً تسلطيّاً التبست فيه، بشكل مأساوي، «القومية العربية» بالقمع الموسّع. بل إن منيف، حين قاسم جبرا إبراهيم جبرا تجربة الكتابة المشتركة في رواية «عالم بلا خرائط»، وقع من جديد على موضوع القمع، مبعداً الروائي الفلسطيني عن جماليات «البطل الذي لا يهزم»، وواضعاً بين يديه سؤالاً سلطوياً مرعباً قاده، لاحقاً، إلى رواية كافكاوية عنوانها «الغرف الأخرى».

تأمل منيف في «شرق المتوسط» سجناً مزدوجاً: سجناً صغيراً عناوينه الضحية والجلاد والزنزانة، وسجناً كبيراً هو مجتمع «المواطنين» الذين لم يدخلوا السجن بعد. وإذا كان في: الأرض – السجن ما ينفي الوطن – المواطنة، فإن في الجلاّد المصنّم ما يهزم الفكرة القومية، قبل أن يذهب «جندها» إلى فلسطين. لهذا تستولد رواية «حين تركنا الجسر» الهزيمة من السلطة، وترى في السلطة ذاتها وجه الهزيمة الأكبر. وهذا ما دعا الروائي إلى أن يؤسس روايته، التي تحيل على هزيمة حزيران الشهيرة، على مجاز الخصاء، إذ المقاتل «مخصيّ»، وإذ إخصاء المجتمع شرط وجود السلطة وديمومتها. بيد أن الرعب الإنساني، الذي تسرده الرواية باقتدار كبير، لا يقوم في مجاز فكري قوامه العقم والخصوبة، بل في ذلك الخراب الروحي الشامل الذي يستوطن المهزوم «الذي لم يقاتل». ولعل قيمة الرواية كلها تكمن، فنياً، في تخليق الروح الإنسانية المعطّلة، متوسلة جملة من الإشارات الدالة المتكاملة. فالشتاء صقيعي في برودته، والأرض موحلة، والصياد التائه يمارس بطولته على كلب بائس، والطريدة متوّهمة، والطلقات خائبة، وأطياف الأجداد هاربة... ولهذا تحضر بطولة الكلام مؤمّنة للصياد المتوحد، تقنياً، مونولوجاً داخلياً شاسعاً، ومعلنة، على مستوى المعنى، عن روح مهزومة تحسن الكلام ولا تحسن تسديد الطلقات. في هذه الشخصية المهزومة، كما في شخصيات من روايات أخرى، يؤكد منيف دور السلطة القامعة كخالق جديد، يمحو الطبائع الإنسانية السوية ويستبدلها بأخرى، غادرتها العفوية والمبادرة والبراءة، واستقر فيها العقم والشلل والتيه المنفتح على الموت والخراب.

بعد خطاب روائي يساوي بين السلطة والهزيمة، يأتي خطاب يستكمل ما قبله، يساوي بين السلطة والموت، وبين السلطة القاتلة والحداثة الفاسدة. أقام منيف روايته «النهايات» على جملة من التعارضات القاطعة بين السلطة ونقائضها: عارض السلطة الملوثة بالصحراء الطاهرة، والصيد القاتل بالصيد الطبيعي وابن المدينة الكاذب بـ«ابن الطبيعة» البريء، وحيوانات الصحراء الطليقة بفحش السلطة بسياراتها وطلقاتها ولهوها العابث وقسوتها المرعبة.... ولهذا تعلن «النهايات» في نهايتها عن موت زمن البراءة وانتصار زمن السلطة، وعن موت الطبيعي

والفطري والأليف، وانتصار الهجين والمصنوع والزائف... بيد أن منيف، وقد نصبّ الصحراء أصلاً نقياً مقتولاً، يرفع التنديد بالسلطة إلى مستوى «التكفير»، ذلك أن الأصل مقدس، وأن قاتل المقدس ينتهك المحرمات جميعها، وأن المكان – الأصل مرجع الحياة، وأن اغتيال المكان تحالف مع الموت ونصرة له. انتهى منيف في «النهايات»، وهو يقارن بين طلقات السلطة وعيون الغزلان القتيلة، إلى منظور متشائم مغلق، يقرن بين السلطة والموت من ناحية، ويعلن عن انتصار الموت على غيره من ناحية ثانية. وقد يبدو، ظاهرياً، أن في منظور الروائي ما لا يأتلف مع رؤية مغلقة التشاؤم، ذلك أن التحريض واسع وشديد الاتساع في خطاب روائي، يكتب «السياسة» أدباً ويحوّل «الأدب» إلى سياسة أخرى. مع ذلك، فإن في خطاب الرواية ما لا يطابق خطاب الروائي، كما لو كان التشاؤم العميق قال ما يريد أن يقول، تاركاً للروائي فسحة يستولد منها الأمل. ولن يختلف الأمر كثيراً في رواية «مدن الملح»، في أجزائها الخمسة، التي توهم بتأويل جاهز سريع، يأتي من النفط والسلطة المتنفّطة والشركات الأمريكية والمستشارين الذين يأتون ولا يذهبون... غير أن في القراءة المتمهلة ما يتجاوز التأويل «السياسي» السريع، ويبلغ مستوى أكثر عمقاً : قوامه الكتابة والموت والذاكرة، حيث الكتابة تحفظ ما مات، معينة ذاتها ذاكرة صلبة، تستعيد أطياف الذين فاتهم الانتصار، وتوقظ الأحياء السائرين إلى الموت.

اتخذ منيف من التجربة الروائية بديلاً عن التجربة السياسية، فهي مجال البوح الماكر الذي يدافع عن الطبائع الأولى، وهي السجل العملي الذي يحتاجه الباحثون القادمون عن الفضيلة. بل يمكن القول إن تجربته الروائية لم تكن ممكنة من دون تجربته السياسية، التي زوّدته بمخزون دنيوي، ودفعت به إلى إعادة تقويم المخزون ونشره على الملأ. لم تنفصل هذه التجربة عن أخرى لا تقل مرارة، هي تجربة المنفى ورخاوة المكان، التي تضيء سيرة إنسان عنيد، ارتضى لنفسه ما شاء، لا ما شاء له الآخرون، فانتقل بين مكانين وأكثر واحتفظ بعدم الرضا. واتسعت هاتان التجربتان بـ«اقتصاديات النفط»، ذلك الاختصاص الذي درسه منيف في يوغوسلافيا، وقرأ به تحولات «النعمة الطبيعية» إلى «نقمة أبدية». لم يكن غريباً، في منظور يقرن بين السلطة والدمار الذاتي العربي، أن يكتب في الفترة ذاتها تقريباً رواية «شرق المتوسط»، ورواية «سباق المسافات الطويلة»، التي تحكي دور الشركات النفطية في فرض سلطات سياسية والتخلص من أخرى. ولعل العلاقة بين البنية السلطوية والثروة النفطية هي التي قادت منيف إلى عمله الكبير «مدن الملح»، الذي رصد تكوّن السلطة النفطية ورصد فيه تغيرات «المجتمعات العربية المتنفّطة»، أي تلك التي أعادت الثروة النفطية صياغتها، سواء امتلكت النفط، أم هبّت عليها «عطايا النفط»، التي ألغت الفروق بين «الحواضر العربية التاريخية» وبلدات صحراوية ليس لها تاريخ.

امتزجت عناصر السلطة والمنفى والنفط وموهبة في السرد واضحة، وأطلقت رواية منيف، التي احتلت موقعاً متميزاً في الرواية العربية لا يمكن إرجاعه إلى غيره. احتقبت هذه الرواية سيرتين : سيرة ظاهرة هي سيرة السلطة السياسية التي دمرت المشروع القومي تدميراً كاسحاً، وسيرة مضمرة هي سيرة المشروع القومي المجهض، الذي اعتقد أنصاره، بعد سقوط فلسطين، أنه

قابل للتحقق. وما بين السيرتين تتراءى سيرة ذاتية فكرية، تسرد توليد الأحلام وانهيار الأحلام، التي هي سيرة المثقف الوطني الذي اعتقد، في شبابه، أن التشظي العربي المتخلّف قابل للتوحد في بنية عربية حديثة.

٢- السلطة النفطية / المجتمعات المتنقطة :

في خمسة أجزاء، وفي ألفين وخمسمائة صفحة تقريباً، اقتفى منيف آثار حكاية النفط، منذ مطالع القرن العشرين إلى منتصف سبعيناته. لم يقتفِ آثار مادة طبيعية محايدة، تحتمل استعمالات كثيرة، بل قرأ اكتشاف النفط وتشكّل السلطة في سيرورة واحدة، منتهياً إلى أطروحات ثلاث: خلق مكتشف النفط سلطة سياسية تدافع عن مصالحه النفطية، استعملت «السلطة المكتشفة» الريع النفطي في توليد جهاز أمني - إعلامي - إيديولوجي يحمي وجودها ويبرّر وظيفتها، أنتج الريع النفطي المستثمر سلطوياً «نمط وجود عربي نفطي»، بما يجعل من السلطات السياسية العربية المختلفة علاقة داخلية في «السلطة النفطية المكتشفة»، وينقل المجتمع العربي كله من «الزمن الإيديولوجي»، الذي سبق هزيمة الخامس من حزيران، إلى زمن إيديولوجي - سياسي جديد، يجعل من الهزيمة الشهيرة معطى نهائياً. بهذا المعنى، درس منيف، روائياً، نموذج السلطة النفطية، التي تضع في بنيتها المتخلّفة جهازاً قمعياً حديث الأدوات غير مسبوق، وجعل من سلطة الريع النفطي مجازاً للسلطات العربية جميعها، التي تساوي بين السلطة والملكية الخاصة، وانتهى إلى مجانسة الأنظمة التي تعيد إنتاج الهزيمة المتوالدة. اشتق منيف «الرؤية الروائية» من الوقائع التاريخية، ورأى مستقبلاً عربياً منهدماً، فارتبك وارتدّ إلى الوراء وتعاطف مع زمن قيمي مضى، وجهه أقرب إلى اللغز ويدعى : «متعب الهذال».

اتكاء على ثنائية البراءة والدنس، وهي من ثوابت منيف، تنفتح «مدن الملح» على آلات عاتية صاخبة تجتث أشجاراً تئن، وتتوجّع وتستغيث، قبل أن تسقط مستسلمة حزينة. ولعل معارضة الآلة القاتلة بالطبيعة العذراء هي التي وضعت على قلم منيف نثراً غنائياً عن الصحراء الجليلة المترامية، وطيور القطا والخضرة اللامتوقعة في مكان أسيف. بيد أن منيف لا يكتب عن الطبيعة الهادئة الغاضبة إلا ليكتب عن «ابن الطبيعة»، الذي لم يطله الفساد، ذلك الذي احتشدت فيه قيم طبيعية قديمة، تتحدث عن التضامن والكرامة ومحاربة الغزاة... وهذه القيم الطبيعية، التي تواجه قيماً وافدة ظالمة وغريبة، تفسّر الغموض الذي يلف شخصية المتمرد «متعب الهذال»، «ابن الطبيعة»، الذي يختفي ولا يموت، كما لو كان أصلاً لغيره أو استطالة لأصل سبق، يحتجب ويوغل في الاحتجاب ويعود في يوم غير منتظر.

تتأسس «مدن الملح»، في تصوّرها للعالم، على هزيمة البراءة، واحتجاب القيم، وعلى انتهاك موروث قديم متعدد الأبعاد. وبما أن الظواهر تتعرّف بنقائضها، تكون الخطيئة بديلاً عن البراءة والانهيار الخلقي بديلاً عن نقيضه، ويكتسح الوافد الآثم غيره. ولهذا يأتي الموت ثابتاً من ثوابت الرواية، تُستهل وتنغلق به، فهو حاضر في الرحيل من «البلدة المغتصبة» إلى أخرى، وفي لحظة

استخراج النفط وبناء البلدة الجديدة، وفي لحظة الوصول إلى أرض النفط أو التهيّؤ للابتعاد عنها... يأخذ الموت البدئي المتناوب بعداً إشارياً، يشير إلى زمن قادم لا خير فيه، قبل أن يحيل على خاسرين استعجلوا المنية. بعد الموت المتناوب الذي يزامن تشكّل السلطة النفطية تتلاشى الإشارة، ويصبح الموت موضوعاً عارياً مكتفياً بذاته، له صفة جديدة هي : القتل، الذي يدور في السجن وداخل القصر وخارجه، وبين القبائل المتحاربة والسلطان الصاعد الذي يريد أن يُخضع غيره لسلطته، بل تموت الخيول بعد أن ماتت الأشجار... يتأسس اكتشاف النفط على مجاز الموت، الذي يمحو زمناً تاريخياً بزمن آخر، وتتأسس السلطة على القتل، الذي يجتث ما يعارض السلطة ويستبقي سلطة الريع النفطي بمأمن من الخطر. يصبح الموت البدئي، الذي لا قوانين له ولا أعراف، موتاً منظماً له أجهزته وأدواته ومسوّغاته، وله بشر يلتهمهم الموت وهم يفتشون عن الحياة. ومع أن سلطة الحياة تعارض حياة السلطة، فإن كثافة القمع السلطوي تستبقي من الحياة قليلها، كما لو كانت السلطة تعيد إنتاج ذاتها في إنتاج الموت واستهلاك الحياة.

بيد أن السلطة لا تحوّل الموت إلى صناعة دقيقة، ولا تضع في بنيتها المتخلّفة أجهزة للقتل حديثة، إلا بسبب «المحرّك الأول»، أي «هاملتون»، الذي يكتشف المادة الخام ويصنعّها، ويكتشف «سلطات خام» ويعيد خلقها. فإذا كان «أبناء الأدغال» امتداداً طبيعياً لطبيعة قابلة للترويض والسيطرة، فإن «أبناء الصحراء»، الذين قتلوا الصحراء، يخضعون، لزوماً، لقوانين اكتشاف النفط وتصنيعه وتسليعه. وعلى هذا، فإن سر السلطة النفطية لا يقوم في النفط بل في مكتشفه، الذي يخلق السلطة ويزوّدها بالأدوات ويلقنها الكلام، كما لو كان خالقاً، يستولد «المدن» من الصحراء، ويحوّل الزمن المحلي إلى صحراء جديدة. وما دور السلطة إلا حجب «الخالق الجديد» بأدوات تروّض المتمرد، وتزهق الوعي، وتستبدل بالقيم الطبيعية قيماً هجينة غريبة عن زمن الطبيعة وعن زمن الآلة في آن.

في شخصية شاسعة المسار تقترب، روائياً، من الفرادة وتخترق أجزاء الرواية الخمسة، يضع منيف السلطة النفطية داخل المجتمعات العربية كلها، منتهياً إلى مجتمعات متنقّطة، ومعلناً اكتساح الزمن النفطي لغيره من الأزمنة العربية. والشخص طبيب شامي الأصول «صبحي المحملجي»، يسرد سيرورة «نمط الوجود النفطي»، ويسرد فيها التجنيس النفطي للعالم العربي. يحتقب «الطبيب»، روائياً، ثلاثة أبعاد متميزّة : فهو شخصية مستقلة بذاتها وواضح المعالم، جاء من أصول شامية ودرس في ألمانيا وعمل في لبنان، ورافق بعثة الحج واستقر في بلاد النفط، وتعرّف على «القصر» واستقر فيه، وأثرى واكتسب ثقته وأصهر له ونصح وارتقى، حتى بدا «القصر» من غير وجوده ناقصاً. غير أن منيف يضع فيه مجازين: أولهما يجعل النفط علاقة داخلية في الحياة العربية والأخيرة علاقة داخلية في السلطة النفطية.. يوسع المجاز حركة الشخصية – المجاز، فتمتد أعمالها إلى لبنان وسوريا ومصر ودول الخليج، قبل أن تنجب ولداً يدرس في الولايات المتحدة ويقرأ الوقائع العربية بلغة أمريكية. أما المجاز الثاني فيتعيّن بـ«المثقف النفطي»، الذي صاغه منيف بشكل نموذجي، وأوغل في صوغه إلى حدود التنكيل. فـ«المرتزق» الشامي

الأصول طبيب يسهر على صحة الأمير وجدارته الجسدية، وخطيب ورجل إعلام مجتهد مشغول بالدين وتصدير الفتوى بقدر انشغاله بالعقارات والمشاريع التجارية، وهو فيلسوف له نظرية «المربع» وإستراتيجي جريء ومقاتل «إيديولوجي» ضد «الإيديولوجيات الهدّامة».. في مهنته التجارية – الفكرية، يبدو الطبيب الشامي مرآة متعددة الوجوه، تنفط الثقافة، وتثقّف النفط، وتؤوّل الإسلام نفطياً، وتؤسلم مالا تمكن أسلمته، وتخلع الإسلام عمن ينتقد فحشها الذي لا يضارع.. فإذا كان المثقف التقليدي، ما قبل – النفطي، يرى في الثقافة ملكية خاصة هدفها التميّز الاجتماعي، فإن المثقف النفطي رأى في الثقافة تجارة ومدخلاً للانتقال من لغة الثقافة إلى حسبان التجارة. وبداهة، فإن بين الطرفين فرقاً واسعاً، هو الفرق بين التصرّف الذاتي بالثقافة الذي لا يأمر بانحلال الأخلاق، والتصرف الذاتي بالأخلاق الذي ينقل الثقافة من حيزّ المعرفة إلى مسارب التسويغ والتبرير والتضليل، بما يجعل الثقافة النفطية نقضاً للثقافة والأخلاق في آن.

يتكشف مآل السلطة، نفطية أكانت أم متنفّطة، في مآل مثقفها، الذي راكم الثروة والبطر السفيه، وانتهى إلى التداعي، يقف ولا يحسن الوقوف، ويقول ولا يدري ما صدر عنه. إنه «رجل الملح»، الذي يبدو متيناً لامعاً في يوم عارض، ويتساقط رخواً إذا سطعت الشمس. ليس في المآل، خارج المجاز، ما يضير مثقفاً تضخّم وتكوّر وتربّع وابتهج بنقوده، وإن كان فيه، داخل المجاز، ما يرى إلى مدن مالحة تكاثر العطش، وإلى أسّ ملحي هش سريع الذوبان. فعلى الرغم من نعمة طبيعية باذخة حملت «الحقبة النفطية» بذور الخراب العربي القادم، فلا صناعة إلا صناعة الإذعان، ولا ثقافة إلا ثقافة الأدعية، ولا إنسان إلا من أعرض عن «متاع الدنيا» وانتظر عقاب الآخرة. ولن يكون المثقف النفطي، والحالة هذه، إلا الجثة المتفسخة التي هزمت «المثقف التنويري»، الذي حاول عبدالرحمن منيف أن يكونه وانتمى إليه حتى اللحظة الأخيرة. تظهر السيرة الفكرية، الواضحة أو المضمرة، مرة أخرى : تظهر في الفرق المطلق بين منيف و«المحملجي»، إذ الأول منصرف إلى آفاق الأمة، والثاني مشغول بجدارة السلطان الجسدية، وتظهر في الفرق بين «كاتب السلطان»، الذي يستدعي أزمنة سلطوية قديمة و«المثقف الحديث»، الذي نقض السلطة التقليدية بـ«عقد اجتماعي» لم تكتب له الحياة. حاول المثقف الحديث سلطة حديثة لم تأتِ، وارتكن «كاتب السلطان» إلى سلطة النفط، التي هزمت الحداثة ووطّدت القمع والتبعية.

٣- للسيرة الفكرية الذاتية وجه آخر :

عارض منيف في «مدن الملح» رواية السلطة بسلطة الرواية، التي تمزج الواقع بالمتخيّل، وتترجم عن الحقيقة. فقد أنتجت سلطة النفط المتنفذة رواية سلطوية، متوسلة الصحفي البطر، والمفكرّ الرخيص، ورجل الدين الذي يؤوّل الدين نفطياً، ومرتكنة إلى أجهزة مدرسية – إعلامية واسعة ترى في المديح المتكرر دربا إلى الشرعية والحقيقة. استقرت بين العلاقتين الرقابة الصارمة وأقانيم الترغيب والترهيب وسلطة السوق الإعلامية المحتكرة. واجه منيف رواية السلطة الضيقة الهائلة العناصر برواية مغايرة خصيبة العناصر : سلطة المتخيل المكتوب الذي يترجم الحقيقة

بمتواليات حكائية تحتضن الحاضر وتنفتح على الماضي والمستقبل في آن، وسلطة حكايات الذين لا سلطة لهم، التي يمنحها المتخيل الخصيب سلطة نوعية تؤرق السلطة النفطية وتوقظ فيها الغضب الشديد. ولعل حكايات الذين لا سلطة لهم هي التي أرشدت منيف إلى تقنية المتواليات الحكائية، حيث المهمش يستكمل حكاية مهمش سبق، واللامثل يستأنف حكاية غيره ويسلمها إلى منبوذ لاحق. تترجم الرواية اغتراب الفنان وسلطة الفن في مواجهة السلطة، وتخبر عن سيرة مكبوتة مقهورة حررها الفنان وخلق الفن منها سلطة مؤرقة. أيقظت السياسة المخذولة في منيف فناناً يتقن سرد الحكايات الفاعلة، وحاورت الحكايات مخزوناً حكائياً شعبياً هاجعاً، يحيل على المقهورين والمنبوذين واللامثلين والمصادرة حقوقهم في الكلام والاحتجاج والاختيار. كتب منيف سيرته الفكرية، والحالة هذه، وهو يرفض سلطة مستبدة من ناحية، ويحرّض الذين لا سلطة لهم على اليقظة والفعل من ناحية أخرى. وعن هذين العنصرين جاء منفاه المكاني، وصدر منفى كتابي يسجّل المنفيّ فيه آلاف الصفحات في عزلة كاملة أو منقوصة.

انطوت السيرة الفكرية على بعد لازم لا تكتمل «حكاية النفط» من دونه. والبعد المقصود هو «رجل الشمال» الذي يعبث بـ«رجل الجنوب»، أو «الإنسان المتمدن» الذي يعيد خلق «رجل الأدغال»، أو «الإنسان العالمي» الذي يأتي من البحر ويروّض «الصحراء». وعن هذا الحوار الساخر الزائف المستحيل بين «المنتصر» و«الخاسر» جاءت شخصية «هاملتون» في «مدن الملح»، الذي أراد ترطيب هجير الصحراء بقبضة من هواء البحر، وصقل «الإيمان الشرقي» بأشياء من «صوت العقل»، وتجسير المسافة الشائكة بين «الجمل» و«السفينة». ليس غريباً أن يكون «هاملتون»، كما «ريتش» في «أرض السواد»، «عالم آثار»، يكتشف ما أراد اكتشافه، ويؤسس سلطته المنتصرة على «سلطة الاكتشاف». وواقع الأمر أن «عالم الآثار» لم يكتشف شيئاً، فقد كانت الآثار موجودة قبل مجيئه، وكانت الأرض المكتشفة هناك، لها بشر وعادات وقيم وبراءة لم تدكّها الآلات. غير أن الاكتشاف، الذي يمحو زمناً تاريخياً «مستقراً» بزمن تاريخي متدفق الحركة، ضرورة أملاها الانتصار، تعيّن المكتشف خالقاً جديداً، يعيد تعريف الزمن والطبيعة والسلطة. فما – قبل النفط زمن رحل وما بعد – النفط زمن يمحو غيره. لهذا تنبثق مع النفط سلطة جديدة لا زمن لها، ماضيها ارتحل وحاضرها هو حاضر النفط ومستقبلها ارتحل مع الماضي الذي لن يعود.

في نقده لـ«إنسان الشمال» عيّن عبدالرحمن منيف ذاته «روائياً من الجنوب»، لا بمعنى المكان الجغرافي المجرد الذي لا وجود له، بل بمعنى الإنسان المضطهد المقيّد الذي صودرت «روايته»، لأن سلطة الكلام من سلطة المتكلّم. فقد كتب «الشمال» عن جماليات الصحراء المكتشفة، وعن الجمال والخيام ورجل الصحراء الساذج الذي لا تنقصه المخادعة، دون أن يقول شيئاً عن «السلطة السياسية المخترعة»، التي تحوّل الأحياء إلى مادة صماء تدافع عن النفط المكتشف وراحة المكتشفين. أراد منيف في «مدن الملح»، كما في «أرض السواد»، أن يواجه الرواية البيضاء المنتصرة برواية أخرى، وأن يدلل على «أن السلطة النفطية العربية» خلق شمالي بامتياز، وأن في

أرض النفط قيماً وأخلاقاً وثقافة لا تختزل إلى الاستبداد والتعصب والبلادة والعقل المستقيل. واجه منيف رواية الشمال برواية الجنوب، بعد أن واجه رواية السلطة برواية الحقيقة. وكان عليه، وهو المختص بـ«اقتصاديات النفط»، أن يصل إلى معنى السلطة النفطية كعلاقة كولونيالية، بلغة ليست تماماً من هذا الزمان، تعيد إنتاج ذاتها كسلطة تابعة وهي تعيد إنتاج القمع الاجتماعي الموسع، الذي هو شرط استمرار وجود الرابحين والخاسرين. تعيّن منيف، وهو يواجه السلطة المحلية برواية من خارجها، مثقفاً داعياً إلى التحرر الوطني، وتعيّن، وهو يجابه الشمال برواية مغايرة، مثقفاً مؤمناً بالتحرر الإنساني الشامل. وهذا التمرد على واقع محلي مغلق، كما الانفتاح على فضاء عالمي يرتهن إلى القوة، سكن رواياته، بل سكنها إلى حدود الاضطراب، كما هو الحال في بعض صفحات «أرض السواد» و«شرق المتوسط»..

في روايته المؤلفة من خمسة أجزاء، كما تلك التي تقع في ثلاثة، تأمل منيف «ذاكرة الشمال»، التي ترى في القوة مبدأ لـ«إصلاح العالم»، وقرأ «ذاكرة الجنوب» التي أصابتها الهزائم المتكررة بعطب لا يسهل إصلاحه. ليس في موضوع الذاكرة حنين إلى زمن قديم، ولا دعوة إلى الكراهية، فكل ما فيه دعوة إلى المعرفة، تميّز بين الخطأ والصواب، معرفة تمدّ الإنسان بقوة محرِّرة. التاريخ ذاكرة أخرى، كان يقول منيف، وذاكرة التاريخ هي الإنسان السويّ،فلا يقصد التاريخ بشكل سوي إلا من أدرك أن حاضره مسكون بالخطأ. وفي الحالات جميعها، كتب منيف سيرة فكرية ذاتية، وهو يكتب سيرة مثقف هجس بالحداثة وسيرة مجتمع وأدت حداثتَه المحتملة سلطاتٌ تقليديةٌ تابعة. ليس في السيرة ما يثير الدهشة، منذ أن قرر منيف أن يعير صوته للمقهورين الذين لا صوت لهم، ومنذ آمن، إلى حدود اليقين، بأن سلطة الكتابة قادرة على زلزلة السلطة زلزلة كبيرة.

٤- منيف والرواية العربية :

ما الذي يميز عبدالرحمن منيف عن غيره من الروائيين العرب؟ ما الذي أضافه وما يتبقى من هذا الروائي الجلود الذي كتب خماسية (مدن الملح)، وثلاثية (أرض السواد) وست روايات مفردة الأجزاء؟ يأتي بعض الجواب من جهة القارئ، ويكون سؤالاً، ذلك أن كتب منيف هي الأكثر تسويقاً في العقدين الأخيرين من القرن الماضي. فقد عرف بعض الكتاب، في الأمس واليوم، رواجاً مختلف الأسباب : بكائيات المنفلوطي التي ترضي جمهوراً بكّاءً يؤمن بالقضاء والقدر وعدل الآخرة، قصص إحسان عبد القدوس التي يشبع الناس بها رغبات مؤجلة، حكايات حنا مينة المشغولة بالخير والشر والتبشير بقيم لا زمن لها مثل الرجولة والكرامة والشرف، كتابات أحلام مستغانمي التي تلبي أنوثة مقموعة لا تهجس بالتحرر ورجولة تقليدية تساوي بين المرأة والدمية... على ضفة أخرى، وفي زمن عربي لا ينقصه الهبوط والانحلال، شكلت رواية منيف ظاهرة خاصة، ذلك أنها قالت بما لا ترحب الإيديولوجيا السلطوية بقوله، وبما ابتعدت عنه «الإيديولوجيا الجماهيرية» إلى تخوم النسيان. فلا السلطة ترضى عمن ينشر جرائمها، ولا «الجماهير» ترتاح

إلى من يستنكر عجزها. بهذا المعنى، بدا منيف صوتاً جهيراً منفياً يواجه سلطة القمع بسلطة الحق، كما لو كان قد أوكل إلى قلمه الجهر بما يعرفه «الجميع» ويصمتون عنه. ولعل هذا الوضع المتفرّد، الذي بدا فيه منيف ضميراً صادقاً مخذولاً، هو في أساس تعاطف القارئ العربي مع أعماله. ومع أن في أسلوب منيف ما يرضي قارئاً متوسط الثقافة، فإن في تحوّل رواياته إلى ظاهرة أدبية ما يرتبط بـ«قارئ جبان»، عثر على من يصرّح بما لا يجرؤ على التصريح به. يدور الأمر كله في «استهلاك الصوت الشجاع» والعجز عن محاكاته، بعيداً عن تحالف القارئ والكاتب الذي تحدّث عنه «بريشت» ذات مرة. وهذا ما يفسّر انتشار رواية منيف، وهي رواية سياسية بامتياز، في زمن تداعت فيه السياسة إلى حدود الانطفاء.

ربما يكون منيف هو الصوت العربي الأوضح الذي بنى «رواية سياسية»، ترصد ممارسات السلطة وتفضحها وتنقدها، وتعلق عليها بخطاب روائي مكشوف المكر وبريء المراوغة. تتكّشف «الرواية السياسية» هذه في أربع نقاط على الأقل: تتعامل مع «الهنا والآن»، وهو عنوان رواية لمنيف، مؤكدة أن الراهن المعيش الواجب تحويله هو سيد الأزمنة. وترى الراهن في أسئلته الأكثر جوهرية: القمع الذي يدمر المجتمع، والنفط الذي يكمل وظيفة القمع وغزو العراق الذي يدمر العروبة والعراق الذي كان. وإلى جانب هذين العنصرين تأتي «الرواية السياسية» بدليلها الأكثر وضوحاً، أي الرقابة، التي تملي على الروائي أن يعفّ عن تحديد المكان وأن يخترع ما شاء من الأمكنة. فهناك «شرق المتوسط»، الذي يضع جملة دول في دولة واحدة، ولن يزيد وضوح المكان أو ينقص في «النهايات، حين تركنا الجسر، سباق المسافات الطويلة..»، وأسماء المواقع في «مدن الملح» متخيّلة... بيد أن التخييل واهن الأقنعة، فـ«شرق المتوسط» ليس بأحجية، و«الهنا» مكان عربي، و«الآن» زمن بسيط التعيين، ولغة الروائي عربية مثل مواضيعه. يستبين العنصر الرابع في لغة الروائي، التي دعاها صاحبها بـ«اللغة الوسطى»، التي يستقبلها القارئ بيسر وبلا مشقة، ويستقبل بها مواضيع زوّرتها السلطة وأعادها الروائي واضحة عارية. هذه العناصر الأربعة، التي تعيد السياسة إلى مناخ حُرِّمت فيه السياسة تحريماً قاطعاً، هي التي جعلت منيف، وباتساق جدير بالإعجاب، يبتعد عن مقولة «التعويض»، التي سادت في «رواية الواقعية الاشتراكية»، حيث انتصار البطل الروائي يتوزّع على القارئ والبطل معاً، ويأخذ بمقولة «التحريض»، التي تندد بوحشية القامع وبخنوع المقموع، واضعة الأخير أمام سيل من الأسئلة. لهذا تنتهي «النهايات» بموت «الإنسان الطيب» و«شرق المتوسط» بتحطم، المواطن البريء و«الأشجار واغتيال مرزوق» بالرثاء على «طيب» آخر فقد ما رغب به. فلا وجود للأبطال، ولا وجود لأبطال ينتصرون نيابة عن غيرهم، فالمعيش هو فضاء الإنسان العادي، الذي تنهب السلطة إنسانيته ويستعيد جوهره المفقود حين يواجه السلطة بلا مساومة.

إذا كانت رواية منيف سياسية بامتياز، لأنها ترى الفعل المقاوم الضروري ولا تبشّر بشيء، فإن في هذه الرواية «المخذولة» ما أكد منيف روائياً عربياً بامتياز أيضاً، لا بسبب لغة وسطى «أقرب إلى الخشونة»، بل بسبب مواضيع روائية يعيش القارئ العربي آثارها بشكل يومي.

وسواء تشجرت المواضيع أم ارتضت بالاختزال، تبقى الهزيمة بوابتها الأولى الرحيبة، تلفّ «ديناً» مهزوم التأويل، وحداثة مخفقة، وإنساناً عاطلاً معطلاً، وسلطة تنجب العطالة وتتعهدها بالنماء. بهذا المعنى تكون رواية منيف هي : «رواية الهزيمة العربية الشاملة في القرن العشرين»، ويكون منيف هو المثقف – الشاهد، الذي سجّل الهزيمة بلا اقتصاد ولا موارية. إنه روائي المهزومين، الذي شهد على هزيمة المكان والإنسان والأوطان، وهو الروائي الذي دعا إلى المقاومة في زمن انتصار الهزيمة. وهذا الوضع التراجيدي، وقوامه الدعوة إلى المقاومة في شرط جرفه الاستسلام، ترك آثاره السلبية على بنية الرواية الداخلية، كأن يكتب «رواية في رواية» في «أرض السواد»، أو أن يوطد دلالة القمع برواية «زائدة» في «الأشجار واغتيال مرزوق»، أو أن يصدر «الهنا والآن» التي هي بيان ضد القمع لا أكثر.

في حدود الهزيمة ومقاومة الهزيمة، كان على منيف أن يرفع جدل الرواية والتاريخ إلى حدوده القصوى، وأن يكون رائداً مجيداً في مخاطبة التاريخ وإرهاقه بالمساءلة. وكان في ما يفعل يشرح معنى «رواية المضطهدين» ويمارسها، فلا يسائل ماضيه إلا من أرهقه الحاضر، ولا يفتش عن هوية ضائعة إلا من حاصره حاضر زريّ الهوية. ولعل معنى الهوية، التي أضاعها الخاسر ولم يعثر عليها ثانية، هو الذي أتاح لمنيف أن ينتج خطاباً روائياً عربياً واسعاً لم ينتجه غيره، وهو الذي سمح له بإضافة روائية كيفية. فانطلاقاً من رواية تواجه «الشمال» بقراءة أخرى، استولد منيف في «مدن الملح» تقنية روائية وطنية، إن صحّ القول، تشتق أدواتها من موضوعها وتضعه، فنياً، في زمن يغاير زمن الرواية المنتصرة. تتجلّى المغايرة الفنية في تقنية «المتواليات الحكائية»، بمعان متعددة : تستدعي الموروث الحكائي العربي وتنقده، ذلك أنها تستبدل بالمقولات الأخلاقية المغلقة مصائر بشرية بعيدة عن الانغلاق، وتحرر الحكاية من أسطورة البداية والنهاية وتضع فيها زمناً متوالداً لا يقبل بـ«نهاية التاريخ»... بيد أن المغايرة الفنية المشروطة تاريخياً لا تلبث أن تفضي إلى خطاب كوني، حين تقوم الرواية، وهي فعل كتابي كوني، بنقد كتابة قديمة لا تلائم الأزمنة الحديثة. وقد تستبين المغايرة في «حين تركنا الجسر»، حيث تقنية «تيار الوعي» تقيس وعياً وطنياً ممزقاً، يتمايز من الاغتراب الوجودي ويختلف عن وعي أرهقته «الآلة» وثقل السلع المصنّمة. ومع أن الأمر، ظاهرياً، يستدعي الهوية والمغايرة، فإنه يحيل، جوهرياً، على النقد والحوار، فلا حوار إلا بالمختلف ولا نقد إلا باعتراف متبادل بين المتحاورين. وبسبب حوار مكبوت، يفتش عن هوية ضائعة، جاء ذلك المكان الواسع الذي احتله «هاملتون» في «مدن الملح»، و«ريتش» في «أرض السواد»، بعيداً عن خطاب لاهوتي يُعلي من شأن «الخير» ويغيّب «الشر» تغييباً كاملاً.

أعطى منيف، وهو يبحث عن هوية ثقافة – وطنية هاربة، الرواية العربية ثلاثة أعمال متميزة لم ينجبها غيره : «مدن الملح»، التي بقيت فريدة في موضوعها وبنائها، و«حين تركنا الجسر»، التي وظفت تقنية «المونولوج الداخلي» باقتدار غير مسبوق، و«النهايات» التي قرأت سلطة الخراب بمجاز فني خصيب متعدد المستويات. لكن استراتيجية منيف الكتابية، كما وعيه الكتابي

بشكل عام، قادته إلى ما أرهق بعض أعماله أحياناً. فانطلاقاً من أولوية الوظيفة على الشكل، أو أولوية التحريض على النوعية، أعاد الروائي الراحل كتابة «شرق المتوسط» في رواية «الهنا والآن»، دون أن يبحث عن تقنية روائية جديدة، أو أن يطرح أسئلة فنية مختلفة. وانطلاقاً من التصور الإيماني لفاعلية الكلمة احتشدت روايته «أرض السواد» بشخصيات ضرورية وغير ضرورية، كما لو كان في استذكار العراق «القديم» ما يبعد الضيم عن عراق حاضر. وواقع الأمر أن هذا المثقف الجلود النزيه الواسع الموهبة ظل محاصراً بوعي أخلاقي ثقيل يقول بـ: أولوية الفاعلية الكتابية على غيرها، الإيمان العميق بقوة الكلمة الصادقة، التي إن لم تهزم السلطة فتحت أبواب هزيمتها الأكيدة.

مبدع عربي عاش زمنه محاصراً، وإنسان واجه الحصار مبدعاً وظل محاصراً. وهذا الحصار الشديد، الذي تهزمه الإرادة، ويرهق الروح، يفسّر كتابة منيف في تناقضاتها المتعددة.